**أصحاب ثعلب**

**محاضرة للأستاذ المساعد الدكتور مهند مجيد برع**

اشتهر من تلاميذ ثعلب كثيرون في مقدمتهم أبو موسى سليمان بن محمد المعروف بالحامض، وهو المقدم من أصحابه إذ جلس مجلسه بعد موته ، وكان يتعصب على البصريين ، وصبّ عنايته على قراءته للناس كتب أستاذه ثعلب كما كان يقرأ كتب الفراء وخاصة كتابه «الإدغام» وألف مختصرا في النحو ، وما زال يوالى التدريس حتى توفى سنة ٣٠٥ للهجرة.

ومن أصحاب ثعلب غلامه أبو عمر الزاهد محمد  بن عبد الواحد ، وكان حافظا مكثرا من اللغة وفيها ألف كتابه «الياقوت» وظل يزيد في نسخته حتى كانت آخر عرضاته له سنة ٣٣١ للهجرة ، وله وراءه مصنفات لغوية كثيرة منها شرح كتاب أستاذه «الفصيح» وكتاب فائت معجم العين وكتاب فائت الجمهرة والرد على ابن دريد ، وقد توفى سنة ٣٤٥ للهجرة.

ولا يقل عن هذين الصاحبين أو التلميذين تأثرا بثعلب واقتداء بمباحثه تلميذه أبو بكر محمد بن الحسن المقرئ النحوي العطار المعروف باسم ابن مقسم  ، وكان يعنى بدراسة النحو الكوفي وله فيه بعض المصنفات غير أنه ركز نشاطه في القراءات فألف فيها كتبا ومصنفات مختلفة ، منها كتاب السبعة الكبير. وقد تأخرت وفاته حتى سنة ٣٥٤ للهجرة.

وكل هؤلاء التلاميذ لا تدور لهم آراء في كتب النحو ، وكأنما كانوا امتدادا لمباحث ثعلب اللغوية ، وقد اتسع بها ابن مقسم في الاحتجاج للقراءات السبعة وكان يقصر عليها نشاطه ، وربما كان أنبه تلاميذ ثعلب في المباحث النحوية أبو بكر بن الأنباري ، ولذلك نخصه بكلمة مفردة.

**أبو بكر بن الأنباري**

هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الأنباري ، ولد سنة ٢٧١ للهجرة ، وأكبّ منذ نشأته على حلقات العلماء في عصره ، وخاصة حلقة ثعلب ، وكانت له حافظة قوية ، حتى قالوا إنه كان يحفظ من شواهد القرآن ثلاثمائة ألف بيت. وصنّف كتبا كثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث والمشكل والوقف والابتداء ، كما صنف في اللغة والنحو كتاب الأضداد وهو منشور ، وكتاب المقصور والممدود ، وكتاب المذكر والمؤنث ، وكتابي الكافي والموضح في النحو.

ونراه يعنى بتعليم الناشئة صور أساليب العربية في بعض أقاصيص ، كان يرويها. وصنع عدة دواوين قديمة ، في مقدمتها ديوان الأعشى والنابغة وزهير والراعي. ومن أهم آثاره شرحه للمفضليات ، وهو منشور ، ويكتظ بمعارفه الواسعة في اللغة والأشعار وأيام العرب. ولم يمتد عمره طويلا ، فقد توفى سنة ٣٢٨ للهجرة.

ومن يرجع إلى كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي لا يشك في أنه كان أحد من دعموا النحو الكوفي بالعلل المنطقية دعما لم يتوافر لأستاذه ثعلب ، وكأنما كان عقله أكثر منطقية وأقدر على التعليل والبرهنة والإدلاء بالحجج البينة ، على نحو ما يتضح في تعليله لاشتقاق المصدر من الفعل ، إذ يقول : «الدليل على أن المصادر بعد الأفعال وأنها مأخوذة منها أن المصادر تكون توكيدا للأفعال كقولك ضرب زيد ضربا وخرج خروجا وقعد قعودا وما أشبه ذلك ، ولا خلاف في أن المصادر ههنا توكيد للأفعال ، والتوكيد تابع للمؤكّد ثان بعده ، والمؤكّد سابق له ، فدلّ ذلك على أن المصدر تابع للفعل مأخوذ منه وأن الفعل هو الأصل الذى أخذ منه». ونرى الزجاجي يذكره في مواضع مختلفة حين يتحدث عن علل الكوفيين ، مما يجعلنا نؤمن بأنه كان فى مقدمة من توسعوا فيها وحاولوا إحكامها إحكاما دقيقا.

ولأبي بكر بن الأنباري آراء مختلفة تدور في كتب النحاة ، من ذلك أنه كان يذهب إلى أن «إلى» قد ترد اسما فيقال : «انصرفت من إليك» كما يقال «غدوت من عليك». وكان يجعل من معانى «كأن» الشك مثل : «كأنك بالشتاء مقبل» أي أظنه مقبلا. وذهب إلى أن «بين الظرفية» قد تقع شرطية إذا جاءت في أول الكلام مثل «بينما أنصفتني ظلمتني». ومعروف أن «كلا» تضاف دائما إلى اثنين أو إلى ضمير الاثنين مثل كلا محمد وعلى وكلاهما ، وذهب ابن الأنباري إلى جواز إضافتها إلى المفرد بشرط تكرارها ، فتقول : «كلاي وكلاك محسنان». وكان يجيز في تابع المنادى العلم إذا كان مضافا الرفع ، فتقول : يا زيد ذو المعرفة ويا محمد أبو عمرو ويا تميم كلّكم بالرفع ، والجمهور لا يجيز سوى النصب.

**كوفيون متأخرون**

لم تنحسر ظلال المدرسة الكوفية بعد أبي بكر بن الأنباري ، فقد ظلت تنقبض ، وتمتد في الحين بعد الحين. وكان مما هيّأ لامتدادها أحيانا أن المدرسة البغدادية التي خلفتها عنى الأولون منها لا بالمزج بين آرائها والآراء الكوفية فحسب ، بل أيضا بتوجيه آرائها وفتق العلل التي تؤيدها على نحو ما سنرى في غير هذا الموضع. وظل الخالفون لهذه المدرسة يستظهرون تلك الآراء ، ويجلبون منها إلى مصنفاتهم بعض دررها. وكان من أهم ما أتاح لهذه المدرسة أن تعيش في ذاكرة الأجيال التالية أن المتنبي أكبر شعراء العربية عنى ـ كما صورنا ذلك في كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ بالتصنع للغات الشاذة في التراكيب ، مما جرّه في شعره إلى الاحتذاء على أكثر ما روته المدرسة الكوفية منها ، حتى ليقول ابن يعيش إنه «كان يميل كثيرا إلى مذهب الكوفيين » ويكفى أن نذكر هنا بعض أمثلة تصوّر تشيعه لهم ، من ذلك الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ، وكان البصريون يمنعون ذلك منعا باتّا  ، يقول :

حملت إليه من ثنائى حديقة سقاها الحجى سقى الرياض السحائب

فقد فصل بين السقي والسحائب بالمفعول به للسقي وهو الرياض. ومثال ثان هو استعماله التفضيل في الألوان مثل قوله في الشيب :

ابعد بعدت بياضا لا بياض له

لأنت أسود في عيني من الظّلم

فقد قال إن الشيب «أسود» من الظلم ، والبصريون لا يجيزون ذلك بينما يجيزه الكوفيون. ولا يتسع المقام لعرض مثل هذه الشذوذات الكوفية عنده ، وشعره يزخر بها ، حتى لكأنما رأى أن يكون ديوانه معرضا واسعا لها.

ويلقانا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ للهجرة وفيه يقول القفطي : «طريقته في النحو طريقة الكوفيين» غير أن أكثر عنايته إنما صبّها على المباحث اللغوية ومن أشهر كتبه معجم مقاييس اللغة وهو منشور ، وفيه يرد معانى مفردات المادة اللغوية إلى معنى واحد. وقد جمع كثيرا من المسائل اللغوية في كتابه الصاحبي الذى صنفه للصاحب بن عباد وزير البويهيين بالري. ويقول مترجموه إن له مصنفا في النحو سماه المقدمة ، ومصنفا آخر باسم «اختلاف النحويين» وأكبر الظن أنه ناقش فيه كثيرا من المسائل النحوية التي اختلف فيها البصريون والكوفيون موردا على الأولين كثيرا من الحجج والبراهين التي تؤيد رأى الأخيرين ، ويقول القفطي إنه كان كثير الحجاج والجدال ، مما يؤكد أنه أسهم بقوة في احتجاجات الكوفيين.

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن آخر النحاة الذين استظهروا آراء المدرسة الكوفية في مصنفاتهم ابن آجروم  الصنهاجي المغربي صاحب المتن المشهور باسم الآجرومية ، وفيه نراه يذهب إلى أن السكون في فعل الأمر سكون جزم لا سكون بناء ، بالضبط كما كان يذهب الكوفيون. وذهب مذهبهم في عدّه «كيفما» بين أدوات الشرط الجازمة. وجعل ـ مثلهم ـ حتى وأو والفاء والواو تنصب المضارع مباشرة دون تقدير أن المصدرية كما ذهب إلى ذلك الخليل والبصريون. وتابع الكوفيين أيضا في عددٍ من المصطلحات مثل النعت وعطف النسق.

وسنرى المدرسة البغدادية منذ أبي على الفارسي تمزج بين النحوين البصري والكوفي مؤثرة في الجملة آراء البصريين ، واحتذتها في ذلك مدرسة الأندلسيين ومدرسة المصريين وكذلك احتذاها في هذا النهج كبار النحاة التالين في الشام والعراق وإيران من أمثال الزمخشري وابن يعيش. وهيّأ ذلك لأن تظل آراء المدرسة الكوفية حية نابضة في كتب النحاة المتأخرين.